كؤوس العارفين

قصة جديدة بقلم

قرأت الحاجة « انيسة » على هامش من هوامش دلائل الخيرات هذه العبارة : « كؤوس العارفين » فغاصت بفكرها طويلاً لتتفهم معناها فلم تفهمه، وكانت قراءتها سقيمة، وكتابتها مفككة كأنها ترميج فوق ترميج أو أثرية مطموسة ، فعادت تقلب في هذا الكتاب الذي ورثته عن ابيها ، وقد يكون خطّ بيده المرتعشة في سنّه المتقدمة هذه العبارة على هامش الكتاب.

كانت تقرأ وِرْدَها في قطعٍ من الليل بعد الصلاة ، فاذا انتهت ونامت هبت في البكور لصلاة الصبح التي لم تفتها منذ عرفت حق العبادة .

وقد كاد يبلى جلد الكتاب بين يديها ، وكادت تذوب أطراف أوراقه الصفر، من طول تداوله فاذا انتهت منه أعادت تلاوته البطيئة التي كانت تستأني بها ، ضعفاً وتلهفاً على تفهمها وإدراك محتواها ، وكانت ذاكرة الحاجة وانية واهية، فأعياها حفظ الدلائل غيباً ، فهي تخطيء في الكلمات وتدخل بعضها في بعض إذا رفعت عينيها عن السطور ، ولم يشغلها شيء بالتفكير والتقدير مثلما شغلتها « كؤوس العارفين » فكلما بلغت الصفحة التي سُطِّرتْ على هامشها كانت لها عندها وقفة طويلة ثقيلة ، كوقفة مستديمة لقطارٍ في محطة مجهولة .

وحين زارتها الشيخة « مَسَرَّة » وكانت اكبر منها سناً واكثر وعياً وخبراً ، انفلتت من حيرتها الصامتة ، وكتمانها ما التبس عليها ، فأخرجت كتابها اليومي عن كيسه الحريري الاخضر ، وفتحت عن مكان الطلسم الذي شغل بالها وسألت صديقتها :

— إقرئي لي هذا الكلام المكتوب بالحبر على طرف الصفحة.

قالت الحاجة « انيسة » سؤالها هذا بنفس امرأة فقيرة خلعت خاتمها الثمين وطرحته بين يدي جارتها لتسألها عن قيمة حجره النادر المجهول .

فأخذت الشيخة « مسرة » الكتاب وجعلت تتفرس ، بالكلمة المسطورة على الهامش بخط فارسي أنيق ، وكانت قد أجادت حفظ الاوراد واحداً واحداً ، وطال تفرسها فيها ، لكنها لم تفك شفة عن شفة ، وكانت تزمها وتصب نظرها على السطر صبّة واحدة ، حتى أدخلت الريبة على صديقتها ، بمعرفتها الواسعة ، ثم رفعت الشيخة رأسها الذي اشتعل شيباً ، وبدا وقاره وهيبته تحت غطائها الابيض الشفاف ، فرمقتها الحاجة « أنيسة » باللهفة وقرأت في وجهها سطوراً خطتها السنون ، وكانت جواباً يقول :

— لا أدري ، الله أعلم ...

وكان جواب صديقتها اللهفى :

— سنعرف بعد ايام ...

فازداد اهتمام الحاجة « أنيسة » بما في كتابها . لقد تناولته برفق وإجلال واغلقته ثم غيبته في كيسه الحريري الاخضر ، ورفعته بحاملته ، فعلقته على مسماره المخصوص في جدار القبلة بحجرتها لتديم التأمل فيه من بعيد ، وهي تصلي او تسبح لله ..

كان هذا الكتاب كمفتاحٍ وضعه ابوها في يدها قبل موته ، لتفتح به ابواب الجنة الموصدة ، وما شاب حياتها عنت او فساد ، فصلاتها وتقواها وحبها الخير العميم ، كانت حصناً حصيناً يقيها في الحياة عثرات المذنبين والخاطئين .

وعادت صديقتها الشيخة « مسرة » الى بيتها سابحة في معاني تلك الجملة ، تتمنى أن لو كانت مكتوبة على هامش الدلائل عندها . ومنذ فتحت كتابها بعد رجعتها قلبت فيه حتى بلغت مثل تلك الصفحة ، ثم خطت بالحبر عبارة « كؤوس العارفين » على الهامش ، واخذت تفكر في المعاني وتستدل من الالفاظ حتى ملّت . وكانت لها قرابة دانية بشيخٍ من مشايخ الحي فعزمت على أن تساله عن المعنى حين يلم ببيتها . فلما جاءها بعد أيام لم يكن وحده ، إذ جاء ومعه نسيب أقرب اليها منه لم يصدر عن مثل علم الشيخ وإنما صدر عن علم آخر ينكره الشيخ ولا يرضاه . وحين استقر بهما المجلس بعد التحيات والمجاملة المعهودة أخذا في شرب القهوة التي صنعتها الشيخة امامهما ، ولم تكلف بها احداً غيرها زيادة في تكريم الزائرين، فقالت لهما بلهجة المستفهمة الملتهفة : — ما معنى « كؤوس العارفين » ؟

وأخذت تقص عليهما قصة صديقتها ، وهما يبتسمان ولا يتكلمان ، وكان لهما أن يجيبا عن فهم وعلم ، فان صيت كل منهما

قد ملأ المجالس والمعاهد ، ولو تحيّر أحدهما في الجواب اوتحرّج منه لظهر أمام كبيرة الأسرة بمظهر الجاهلين ، ذلك إذن ما خامر كلا منهما ، فعدّ الصمت والتعلل عِيّاً وغبنا .

* * *

أيها الشيخ تكلم فاكشف عن علوم الشرع ، وأنت أيها الفتى قل ما وعيت من علوم الغرب ، فان فقدان ما تملكان من ذكاء وثقافة أمر سهل أمام هذه الشيخة المستفهمة إذا لم تجيبا إجابة ترضيها .

وقد أراد الشيخ أن يمهد للجواب بسؤالٍ قال فيه :

— هل هذا يا عمة امتحان ؟

— أمر أصعب من الامتحان ...

كلمة قالتها الشيخة بمرارة وحسرة ولم تكاتم قريبها فقالت :

— امتحنتني صديقتي الحاجة « أنيسة » بهذه العبارة ، فلم اقدر على الاجابة الصعبة .

فقال الآخر وهو الفتى :

— هذا امتحان الامتحان ...

وضحكوا جميعاً في الغرفة ، ثم هزت الشيخة رأسها واصلحت لف غطائها وقالت وهي تتململ :

— أنقذوني بالجواب الصريح ، فقد تحيرت وخجلت ، وطال انتظار صديقتي ...

فابتدر الحديث الفتى وأخذ يشرح للعمة معنى العارفين . فالعارفون عنده بحقائق الأمور هم الفلاسفة او الحكماء ، ثم مال عن هؤلاء الى الرياضيين . وكانت الشيخة لا تفهم شيئاً مما يدور في المناقشة ، فالكلام لم يوجه اليها وإنما كان كل من الشيخ والفتى يتجه بكلامه الى صاحبه . فردّ الشيخ بأن العارفين عنده هم علماء الشريعة ، وذوو الاجتهاد في اللغة والبيان ، وحذاق المفاهيم الدينية .

واستمر بينهما التحاور واستحكم حتى كاد يصير جدالاً عنيفاً ، فأخذت الشيخة تستغفر الله ، إذ عدت نفسها سبب هذا الجدل والمناظرة .

وكانت على سجيتها قد ملكت عقل السنين ولباقة المحدثين فقالت لقريبها :

— تحاورتما طويلاً في العارفين ولم تقولا كلمة في الكؤوس .

فبغت الشيخ والفتى ، وأخذا يفسران هذه الاضافة ومعناها ، فسحب الاول كلامه حتى بلغ به الى الصوفية ، فكؤوس العارفين ، هي خمرتهم الالهية المنتظرة في عالم الغيب ، وانسحب الآخر وهو الفتى بكلامه حتى وصل به الى كؤوس العارفين في خمر الخيّام .

وما كاد ذكرهم للخمر وكؤوسها يسقط في سمع الشيخة حتى صكت وجهها وسدت أذنيها بكلتا يديها وقالت مرتعشة مغيظة :

— أعوذ بالله من هذا الجواب ، والله لو لم تكونا لي قريبين عزيزين ، لكان لي معكما يوم مشهود . اسكتا ، لا اريد الجواب ! ..

فتبسم المتحاوران وتلطفا للأمر ، وجعلا يكملان شرب القهوة التي بردت بين ايديهما بعد ان شغلهما عنها الجدال ، ثم نهضا واجمين خجلين من قريبتهما التي لم يعجبها منهما التفسير والتأويل .

ومضت ايام انقطعت بها العمة الشيخة عن صاحبتها وزميلتها ، ولكنها رأتها في تعزية من تعازي النساء ببيت في الحي المجاور ، وحين خرجتا متحاذيتين قالت إحداهما للأخرى :

— طالت غيبتك عني !

— شغلتني بما سألتني .

— وهل وجدت الجواب ؟

— نعوذ بالله من الجواب

— وما هو ؟

— لا استطيع ان ألفظ اسمه ...

— ألفظيه .. قولي اي كلام !

فشعّ الابتسام في عيني الشيخة وقالت بصوت خافت مستح :

— المهجورة ...

— وما هي المهجورة ؟

— الخمر ، أستغفر الله ، أستغفر الله !

فهزت الحاجة « انيسة » رأسها استخفافاً وقالت :

— الخمر يا حبيبتي لا تكون للعارفين ...

— وكيف فهمت معنى العارفين ؟

— منذ تركتك وأنا أسائل نفسي عن هذا المعنى حتى عرفته .

— قوليه ...

— سأدلك عليه حين تتفضلين بزيارتي ...

وما أقبل الغد حتى سارعت الشيخة إلى صديقتها وقد طوت في نفسها خجلاً منها وخشية من أن تعيد عليها السؤال المحير . أما الحاجة « أنيسة » فقد تلقتها بالحفاوة والبشاشة وكأنها نسيت ما كان يشغلها .

لقد جلستا في حجرة العبادة حيث كان الكيس الاخضر الحريري معلقاً على جدار القبلة وتلهفت الشيخة في نفسها وانتظرت معرفة الجواب الشافي ، فكانت تعاين صاحبتها التي نشأت مثلها على التقوى والزهادة وكانتا صورة الميراث الباقي من نساء الجيل الفاني .

وكانت الحاجة «أنيسة» تسلي صاحبتها ، وهي تغلي ماء بين يديها في ابريق على موقد صغير ، ولما غلى الماء كفتت فيه شيئاً أسود ثم غطته ، وصفّت على الصينية كأسين صغيرتين وضعت في كل منهما قطعة بيضاء ثم صبت فيهما من الابريق ماء احمر ، واخذت ملعقة صغيرة أدارت بها الشيء الابيض في قعر الكأسين حتى ذاب ، وبحركة محفوفة بالوقار الذي خلعته السن النقية من الأدران تقدمت الحاجة انيسة الى الشيخة « مسرّة » بالصينية وعليها الكأسان وقالت لها بلهجة الغزاة اللافتحين :

— اشربي يا شيخة ، اشربي الشاي ، فهو كؤوس العارفين ...

القاهرة **وداد سكاكيني**

راجعوا دائماً :

المكتب التجاري

للاستيراد والتصدير والوكالات

- لتأمين طلباتكم من مختلف الكتب
- لتوزيع منشوراتكم في كافة الأقطار
- سرعة في تلبية الطلبات الخارجية

صاحبه ومديره : زهير بعلبكي

بيروت — بناية درويش — شارع سوريا